الكاتب المصري

جمادى الأولى ١٣٦٥ — ابريل ١٩٤٦

مجلد ٢ — عدد ٧

الساحرة المسحورة

فتح الحب العابس لها باب الدنيا ، وفتح الحب الجادُّ لها باب الآخرة ، فسلكت بين هذين البابين طريقاً عسيرة بُثت فيها العِقاب واكتنفتها المصاعب ، وملأتها الآلام ، ولم تخلُ مع ذلك من لذة قليلة ، وبهجة ضئيلة ، ومتاع عقلى متصل . فلما اختطفها الموت قدّر الناس أنها قد أورثت بعض القلوب والعقول حزناً عظيما وبؤساً ممضًّا ، وأصبحت حديثاً من أحاديث التاريخ الادبى ستحفظه ذاكرة الأيام وقتا يقصر أو يطول ، ثم يمسه النسيان قليلا قليلا حتى يمحوه فى يوم قريب أو بعيد ، كما محا كثيراً من الأحاديث لكثير من الناس فى كثير من العصور وفى كثير من البلاد . ولكن القرن التاسع عشر لم يكد يتقدم قليلا حتى تبين أنها لم تترك للناس ذكراً فحسب ، وإنما تركت لهم آية أدبية من أروع آيات الأدب ، لا فى وطنها الفرنسى وحده ، ولا فى القرن الثامن عشر وحده ، بل فى جميع الأوطان المتحضرة ، وفى جميع العصور التى عُنيت فيها الإنسانية بالإنتاج الأدبى الرفيع .

هذه هى مدموازيل دى لسبيناس التى أريد أن أحدثك عنها فى هذا المقال : والتى ولدت سنة ١٧٣٢ وتوفيت سنة ١٧٧٦ . لنفرُغ من ذكر الأرقام التى يظهر أن المؤرخ لا يكون مؤرخاً إلا إذا حفظها وحققها ، واستقصى ما يتصل بها من الأحداث والخطوب .

واحب أن تعلم منذ الآن أنى لا أريد فى هـذا الفصل أن أكون مؤرخاً للأدب الفرنسى ، فلست من تاريخ هذا الأدب فى شئ ، وإنما قرأت عن هذه الآنسة فى بعض ما أقرأ فأعجبنى حديثها ، لحاولت أن أتعمق هذا الحديث فازددت به إعجاباً ، وجعلت لا أمضى فى استقصائه إلا دُفِعتُ إلى مزيد من التعمق حتى أنفقت فى ذلك شهراً وبعض شهر . ولعلى أغالط نفسى بعض المغالطة ؛ فقد أنفقت فى ذلك شهرين أو أكثر من شهرين ، ولم أفرغ منه بعدُ على كثرة الكتب والمجلات التى تجتمع بين يدى ، وتنتظر أن أفرغ لها ساعة من ليل أو ساعة من نهار . وأنا مع ذلك معرض عنها مُصِرٌّ على هذا الإعراض ؛ لأن أحاديث هذه الآنسة ما زالت تدعونى ، وتلح فى الدعاء ، ولأن هذه الأحاديث لا تكاد تنقضى

لا تنتظر منّى إذن بحثاً عن التاريخ الأدبى الفرنسى فى القرن الثامن عشر ، ولا تحقيقاً للحوادث ، ولا تحليلاً للنتائج والمقدمات ؛ فما أحب أن أعرض لشئ من ذلك الآن ، وما أكره أن أعرض له فى يوم من الأيام ، ولعلى أن أخصص كتاباً أعرض فيه حياة هذه الآنسة عرضاً مفصلاً دقيقاً ، فأما فى هذا الفصل فليكن تحدثى إليك عنها سهلاً سمحاً لا يكلّفك ولا يكلفنى مشقة ولا عناء ، وإنما نرسل فيه النفوس على سجيتها ، ونقف فيه أحيانا عند هذه العاطفة أو تلك ونتعمق فيه أحياناً أخرى هذا الخاطر أو ذاك . وأنت تعلم من غير شك أن حياة الطبقة الممتازة من الفرنسيين فى النصف الأول من القرن الثامن عشر كانت قد دفعت إلى نوع من الحرية المسرفة يوشك أن يكون إباحة وإمعاناً فى المجون . دفعتها إلى ذلك أشياء كثيرة ، منها حاجة الفرنسيين إلى شئ من الهواء الطلق والتنفس الحر ، بعد أن ثَقُلت عليهم تلك الحياة التى فرضها حكم لويس الرابع عشر عليهم ، نصف قرن أو أكثر من نصف قرن ، وكلفهم فيها كثيراً من الجهد وعرّضهم فيها لكثير من الخطوب ، وحمّلهم فيها كثيراً من التضحيات . فلم يكد هذا الملك العظيم ينتقل إلى الحياة الثانية حتى أحس الفرنسيون كأن عبئا ثقيلاً جدًّا قد حُطّ عن كواهلهم ، فأصبحوا أقدر على الحركة ، وأميل إلى النشاط ، وأسرع إلى الاستمتاع بالحياة فى غير تكلف ولا استخفاء . ومنها أن العقل الفرنسى كان قد اتصل بالنهضة العلمية التجريبية كما تأثر بالفلسفة الحديثة التى تحررت من قيود أرسطاطاليس ، فتغير فيه كثير من القيم ، وعرف كثيراً مما كان ينكر ، وأنكر كثيراً مما كان يعرف ، ونظر إلى الحياة التقليدية نظرة

فيها كثير من السخرية والازدراء . ولم تلبث الحياة العملية أن دُفعت إلى الحرية التى دُفِع إليها العقل ، فأعلن النـاس كثيراً مما كانوا يسرّون ، وأظهروا كثيراً مما كانوا يخفون .

ومنها أن الأدب الفرنسى نفسه كان قد أخذ فى هذا العصر يضيق بالقيود والقوانين التى فُرضت عليه أثناء القرن السابع عشر ، ورسمت له طرقاً لا ينبغى أن يعدوها ، ومذاهب لا ينبغى أن يخالف عن أمرها ، تخضعه بذلك لمذاهب القدماء من اليونانيين والرومانيين، كما صورت فى إيطاليا أوكما صورها الفرنسيون لأنفسهم فى فرنسا نفسها أثناء القرن السادس عشر وفى أول القرن السابع عشر . فلم يكد عصر لويس الرابع عشر ينتهى أو يقارب الانتهاء حتى ظهر الخلاف ثم اشتدّ بين القدماء والمُحْدَثين . وما من شك فى أن هناك أسباباً أخرى كثيرة دفعت الطبقة الممتازة فى فرنسا إلى استئناف هذه الحياة الجديدة الحرة الماجنـة المتهالـكة التى ظهرت قوية فى عهد الوصاية ، وجعلت تزداد قوة وتسلطا كلما تقدّمت الأيام . وهذه الأسباب تتصل بالسياسة، وتتصل بالاقتصاد ، وتتصل بالثقافة، وتتصل بهذا المركز الممتاز الذى أتيح لفرنسا فى ذلك العصر وجعلها أعظم مركز من مراكز الحضارة فى أوربا . ثم تتصل آخر الأمر بهذه العلاقات القوية التى استوثقت بين الفرنسيين وبين البلاد المجاورة لهم ، فجعلوا يرحلون إلى هذه البلاد ويظهرون على ما فيهـا من ألوان الحياة ، كما جعل أهل هذه البلاد يرحلون إلى فرنسا ويظهرون على ما فيها من ألوان الحياة أيضاً . والواقع من الأمر على كل حال هو أن فرنسا دُفِعتْ فى هذا العصر إلى حياة جديدة تحرر فيها الممتازون من كثير جدًّا من قوانين الخُلق والعرف والدين .

ومولد الآنسة التى أريد أن أتحدث عنهـا فى هذا الفصل مظهر من مظاهر هذا الانحلال ، وأثر من آثاره فى وقت واحد . فقـد كانت أمها سليلة أسرة نبيلة غنية ، وكان زوجها الـكونت دالبون سليل أسرة نبيلة غنية أيضاً . وكان هذان الزوجان قد نعما بالحياة عصراً ورُزِقا فى أثناء ذلك الولد من الذكور والإناث . ولـكن الأمر بينهما فسد — وما كان أكثر ما يفسد الأمر بين الأزواج ! — فاتصلت أسباب الزوجة برجل نبيل غنى هو الـكونت جسپار دى فيشى ، ورُزِقتْ منه غلاما انتهت به الحياة إلى التربية الدينية ، وإلى أن أصبح رجلا من رجال الدين ، ورزقت منه طفلة هى هذه الآنسة التى نتخذها موضوعاً

لهذا الحديث . وقد عُمِّدت هذه الطفلة فى كنيسة من كنائس ليون ، ولكن اسمَىْ أبويها قد اخترعا اختراعاً مخافة العار ، فلم تنسب إلى أمها ولا إلى أبيها ، وإنما ذكر للقسيس اسمان من أسماء الطبقة الوسطى العاملة . واطمأنت الأم إلى أن نفس ابنتها قد أصبحت نفساً مسيحية . وما ينبغى أن نفترض أن الأم قد قصّرت فى ذات ابنتها أو أحبتها حبًّا فاتراً ، فقد كَلِفَتْ الأم بابنتها كلفاً شديداً ، وعُنيت بتربيتها عناية متصلة ، لم تَسْتَخْفِ بشىء من ذلك ولم تحتط فيه ، وإنما ضمت ابنتها إليها ، وقامت على تأديبها وتثقيفها ، ومنحتها من حبها وعطفها مكاناً ممتازاً . ولم تقصِّر إلا فى شىء واحد هو هذا الذى يتصل بالحياة المدنية الرسمية ؛ فهى لم تلحقها بأبيها لأن ذلك لم يكن ممكناً ، ولم تلحقها بأمها لأنها لم ترد أن تعترف على نفسها بالإثم ، وإنما أعطتها اسما من أسماء الأرض التى كانت ملكا لأسرتها الخاصة ، فسميت جولى دى لسپيناس ، ومنحتها بعد ذلك كل ما كانت تملك لأبنائها الشرعيين من الحب والعطف والإيثار .

على أن المشكلة لم تلبث أن ثارت غير مرة حين تقدّمت السن بالفتاة . وربما كان أيسر الأشياء ، أو قل أيسر الخطوب التى عرضت لهذه الفتاة ، أمر مستقبلها حين تقدّمت السن بأمها وأخذت تحس أنها تسعى إلى الموت مسرعة ، أو أن الموت يسعى إليها متمهلا ، كما يتمهل دائماً فى سعيه إلى الناس . فلم يكن من الممكن أن ترث الفتاة أمها ، وتشارك فى تركتها الضخمة . لم يكن ذلك ممكناً ؛ لأن الأم لم تستلحق ابنتها ، ولأن إخوة الفتاة لأمها يكرهون ذلك أشد الكره ويمانعون فيه أشد الممانعة . ولم يكن من الممكن أن توصى الأم لابنتها بشىء ذى خطر يحميها من عاديات الأيام ؛ فقد كانت الأسرة تراقب هذه الأم وتراقب تصرفها فى ثروتها كلما دنت من الموت أو دنا الموت منها .

ولذلك لقيت الأم البائسة من التفكير فى مستقبل ابنتها عناء شديدا ، وانتهت آخر الأمر إلى أن أوصت لها بإيراد ضئيل ، إن لم يتح لها الترف وخفض العيش فإنه يعصمها من البؤس ، ويكفل لها حياة محتملة .

على أن الأم قد احتالت لإيثار ابنتها ببعض الخير ، فادخرت لها مقداراً من الذهب لا بأس به ، وأظهرت الفتاةَ على مكانه ، وأسرّت إليها أن احتفظى لنفسك بهذا المال حين يدركنى الموت . ولكن الفتاة كانت نقية النفس ، كريمة الطبع ، نزيهة الخلق ، محبة لإخوتها ، فلم تحتفظ لنفسها بشىء ، وإنما أدت إلى أخيها الأكبر كل

شيء . وسنتبين بعد حين أثر هذا كله فيما تعرضت له الفتاة في حياتها من الأحداث . على أن المشكلة الخطيرة التي عذّبت الفتاة عذاباً شديداً ، وعذبت أمها عذاباً ليس أقل مما احتملت الفتاة هولاً ، ولعله أن يكون أعمق أثراً وأعظم نكراً ، هي هذه التي ثارت حين أحب الكونت جسپار دي فيشي أبو الفتاة الآنسة ديان دالبون أخت الفتاة لأمها ، فخطبها واتخذها لنفسه زوجاً . ولم تستطع الأم البائسة أن تمانع أو تقاوم ، لأسباب تتصل بالثروة والشرف والعلاقة بين أسر النبلاء . وقد كانت هذه الخِطْبة وما تبعها من الزواج أساساً للمأساة التي قتلت نفس الأم وعذّبت نفس الفتاة عذاباً طويلاً ، وأثرت في الأدب الفرنسي كله آثاراً بعيدة المدى . وهذه المأساة التي لم يتخيلها أحد ولم ينشئها كاتب قديم أو حديث ، وإنما أنشأتها الظروف ومثلتها الحياة ، هذه المأساة ليست أقل روعة من أي مأساة أخرى تصوّرها القدماء أو المحدثون .

فهناك امرأة ترى عشيقها وأبا ابنيها يخطب ابنتها الشرعية ويتزوجها . فدع كرامة هذه المرأة ودع شرفها ، وقف عند الصراع العنيف بين حب المرأة لخليلها وحبها لابنتها الشرعية ، وحبها لابنتها الأخرى ، وشعورها بهذا الإثم المنكر وما نشأ عنه من تعقيد بغيض في حياة أبنائها ، وعجزها عن أن تقول في هذا كله شيئاً ، أو أن تقاوم هذا كله بشيء ، وإذعانها لحكم القضاء الذي لا مردّ له ولا منصرف عنه ، وعذاب نفسها المتصل حين ترى ابنتها زوجاً لخليلها وزوجاً لأبي أخويها .

ثم قدِّر موقف الفتاة نفسها من هذا كله ؛ فقد كانت تشعر به شعوراً غامضاً ، ثم جعل هذا الشعور يتضح شيئاً فشيئاً حتى عرفته الفتاة معرفة دقيقة .

فقدِّرْ موقفها من أبيها الذي أصبح لأختها زوجاً ، ثم قدِّر موقفها حين ماتت أمها ، وحين انتقلت إلى قصر الكونت دي فيشي ، فعاشت بين أختها وأبيها . ثم قدِّر موقفها حين رُزِقتْ أختها الولد فأصبح أبناء أختها لها إخوة قد منحهم الحياة أب واحد . وهي تعيش في هذا كله ، وتحتمل أثقال هذا كله ، وتألم من أعقاب هذا كله ، ولا تستطيع أن تجهر منه بشيء أو أن تنكر منه شيئاً ، أو أن تدفع عن نفسها من آثاره شيئاً .

قدِّرْ هذا كله وحدثني أيهما أبرع في التصور ، وأقدر على الابتكار ، وأمهر في ابتداع المأساة : خيال الكتّاب والشعراء أم خيال الحوادث والظروف ؟

مهما يكن من شئ فقد أنفقت الفتاة فى قصر أبيها وأختها أياماً طوالا ثقالا ، ثم أرادت الظروف أن يزداد بؤسها نكراً حين تقدم إخوتها وأبناء أختها فى السن ، فقامت منهم مقام المربية المؤدبة . وقد كانت الفتاة كريمة النفس ، نبيلة القلب ، نقية الطبع ، فأحبت هؤلاء الأطفال حبًّا شديداً ، وأخلصت فى تربيتهم وتأديبهم أتم الإخلاص وأمتنه . واقتضت ظروف الحياة فى عام من الأعوام أن يرتحل الزوجان عن القصر فى غيبة تطول بعض الشئ ، فقامت هذه الأخت الخالة من إخوتها مقام الأم وشملتهم من العطف والرعاية والحنان بما حمل الأبوين على شكرها حين عادا إلى القصر . ولكن السعادة الخالصة لم تقدر للناس ، وازدراء المنافع المادية لم يُتَحْ لكثير منهم ، والارتفاع عن الظلم والطغيان والبطر لم يقدَّر إلا لأفراد يُحْصَوْن بين حين وحين . فقد كان الزوجان يضيقان بهذه الفتاة على رغم وداعتها وسماحة نفسها ونقاء ضميرها . تضيق بها أختها لمكان هذه الأُخوة الآثمة ، ولمجرد التفكير فى أن هذه الأخوّة قد تثير اختلافاً حول المنافع المادية فى يوم من الأيام . ويضيق بها أبوها لمكان هذه الأبوّة الآثمة ، ولحرصه على المنافع المادية أيضاً بالقياس إلى نفسه وإلى أبنائه ، ولهذا الحرج الثقيل الذى لم يكن بدٌّ من أن يجده بين حين وحين كلما فكر فى أن قصره يظل أختين إحداهما امرأته والأخرى ابنته . ولم تكن الفتاة أقل ضيقاً بهذه الحياة المنكرة من هذين الزوجين ، يدفعها إلى هذا الضيق شعورها بهذا الإثم الذى يحيط بها والذى لا تحمل أوزاره لأنها لم تقترف منه شيئاً ، وشعورها بهذا الحق المضيع والكرامة المهدرة بين قوم كان من الحق عليهم أن يشملوها بالحب والعطف والحنان . أبٌ من الحق عليه أن يبر ابنته وهو ينكرها ويظلمها . وأخت من الحق عليها أن تؤثر أختها بالمودة ، وهى تعقّها وتستأثر من دونها بالخير كله ، وتصرف عنها قلب أبيها ، وتتخذها خادماً أو شيئاً يشبه الخادم . ومن أجل هذا كله أخذ الأمر يفسد شيئاً فشيئاً بين الزوجين وبين هذه الفتاة . وقد احتملت الفتاة ما استطاعت أن تحتمل ، فلما لم تجد إلى الصبر سبيلا فكرت وقدّرت ، وأزمعت أن تخرج من هذا السجن البغيض .

وكان أمامها طريقان للخروج من هذا السجن : إحداهما يسيرة سهلة ولكنها بغيضة إلى نفسها أشد البغض مناقضة لطبعها أشد المناقضة ، وهى الطريق إلى الدير لتصبح راهبة . وما أكثر الراهبات اللاتى دفعن إلى الدير لا تأثراً بالدين

ولا تهالكاً على التقوى ، ولكن نفتهن ظروف الاقتصاد ، أو ظروف الاجتماع عن الحياة العاملة ! ولكن الفتاة لم تكن تطيق التفكير فى الدير ولا فى الانقطاع للدين ؛ فقد كانت حياتها أقوى وأغزر وأخصب وأكثر بعداً عن التصوف من أن تُبعِدها لهذا الانزواء الخامل الجدب فى أعماق الدير . أما الطريق الثانية فلم تكن ميسرة ولا خالية من العقاب . فقد كانت الفتاة تودّ لو استطاعت أن تستقل ، وتنعم بحياة حرة لا تخضع فيها لأحد . ولكن كيف السبيل إلى ذلك وإيرادها أضيق من أن يسع حاجاتها ومطالبها ! أليس من الممكن أن يعينها أخوها ذاك الذى يعمل ضابطاً فى الجيش والذى أظهر حبًّا لها وعطفاً عليها ؟ فلتعتمد عليه إذن ولتكتب إليه . ولكنه يردّ عليها مخيباً أملها ، لا بخلا ولا قسوة ، ولا تعمداً لإيذائها ، ولكن ظروفه لا تسمح له بأن يبذل لها المعونة التى ترجوها ، وهو من أجل ذلك يتقدم إليها فى ألا تحاول هذا الاستقلال ولا تطمع فيه .

وفى أثناء ذلك تزداد الحياة ثقلا فى القصر ، ويزداد الخلاف نكراً بين الأختين . وتلم بالقصر زائرة ذات خطر ، تواسى الفتاة وتسليها أول الأمر ، وتجد لها مخرجاً من ضيقها وفرجاً من حرجها آخر الأمر ، وهذه الزائرة الخطيرة هى مدام دى ديفان .

ومدام دى ديفان ليست فى حقيقة الأمر إلا عمة الفتاة ، نشأت كما نشأ أخوها فى هذا القصر ثم اختلفت بهما أسباب العيش ، فتزوجت من المركيز دى ديفان ، ثم فرّقت بينهما الأحداث ، فسلكت فى باريس وفى قصر الوصى على العرش مسالك الريبة والعبث ، واستمتعت بالحياة الماجنة وقتاً ما ، ثم ثابت إلى نفسها وراجعت أمرها وجددت سيرتها ، واتخذت لها رفيقاً خليلا من رجال القضاء ، ومضت تدبر حياتها فى حزم وجد حتى اكتسبت لنفسها فى باريس مركزاً ممتازاً . ثم اتخذت لنفسها داراً ملحقة بدير من الأديار فى باريس ، وجعلت تستقبل فى هذه الدار أعلام الأدب والفلسفة والسياسة ، حتى أصبح « صالونها » من أهم المراكز الثقافية الممتازة فى العاصمة الفرنسية . وقد توثقت الصلات بينها وبين الأعلام الممتازين فى الحياة الفرنسية حتى أصبح اسمها عَلَماً من الأعلام فى الحياة الأدبية الفرنسية وفى التاريخ الأدبى الفرنسى بوجه عام . وقد جعلت كلما تقدّمت بها السن تشعر بشيئين يدفعانها إلى التشاؤم دفعاً شديداً : أحدهما مادى

وهو هـذا الضعف الذى أخذ يصيب بصرها شيئاً فشيئاً ويصورها لنفسها ضريرة بعد وقت طويل أو قصير . والآخر معنوى وهو هذا البغض لأوضاع الحياة والشك فى قيمتها والإنكار لهذه القيمة آخر الأمر ، حتى انتهت إلى مثل ما انتهى إليه أبو العلاء حين قال :

هـذا جناه أبى علىّ (م) وما جنيت على أحَدْ

فقد كانت تقول إن أبغض شىء فى حياة الإنسان هو حياة الإنسان . ولذلك أحست شيئاً شديداً من الضيق ، والتمست إلى العزاء والشفاء وسائل مختلفة ، ومن بين هذه الوسائل زيارتها لقصر أخيها . وفى هذه الزيارة لقيت هذه الفتاة فكَلِفتْ بها أشد الكلف ، وأعجبت بها أعظم الإعجاب ، ثم لم تلبث أن رأت فى هذه الفتاة رفيقاً لها فى حياتها البائسة فى باريس . فجعلت تتقرب إليها وتتلطف لها حتى ارتفعت بينهما الكُلْفة ، وأخذت الفتاة تبثها آلامها وأحزانها وتجد عندها التسلية والمواساة .

وقد عادت مدام دى ديفان إلى باريس ، وصممت الفتاة على ترك القصر ، ففارقته بعد خطوب ، وأوت إلى دير من الأديار فى مدينة ليون ، لم تلتحق به ، وإنما اتخذته لنفسها مثوى كما يأوى الناس إلى الفنادق الآن . وقد أقامت فى هذا الدير وقتاً غير قصير ، ريثما تقنع أخاها بحسن رأيها فى الحياة المستقلة . وقد كان هذا الإقناع عسيرا ، جدّت فيه الفتاة ، وجدّت فيه مدام ديفان ، وتوسط فيه أحد الأساقفة . وانتهت الفتاة بعد لأى إلى ما كانت تريد ، وظفرت مدام دى ديفان بعد مشقة بما كانت تتمنى . ووصلت الفتاة ذات يوم إلى باريس واستقرت عند عمتها أو صديقتها فى الطابق الأعلى من الدار

وقد فُتن المختلفون إلى صالون مدام دى ديفان بهذه الفتاة الوافدة من الأقاليم ، لا لجمالها فلم تكن ممتازة الجمال ، ولكن لظَرْفها وخفة روحها ورجاحة عقلها ، وسعة معرفتها وقدرتها على المشاركة فى كل الأحاديث التى كانت تدور فى هذه الاجتماعات .

وما أحب أن أفصل حياة الفتاة فى هذه الدار ، فذلك شىء لا يتسع له هذا الحديث ، ولكنى ألاحظ أن إقامتها فى هذه الدار لم تطل حتى صَبَتْ إليها بعض القلوب ، فوجدت فى نفسها بعض الصدى ، ولكن فى كثير من التحفظ

والاحتشام . صبا إليها قلب هـذا القاضى الذى كان خليلا لعمتها ، وصبا إليها قلب نبيل فرنسى أديب آخر ، وصبا إليها بنوع خاص قلب نبيل إيرلنـدى كان يختلف إلى الدار ، وهمّت الفتاة أن تصبو إليه ، ولاحظت مدام دى ديفان ذلك فاصطنعت بعض العنف ، وطردت هذا الإيرلندى من دارها . ولم تلبث الفتاة أن ثابت إلى الرشد والحزم ، أو ثاب إليها الرشد والحزم .

على أنها لقيت فى صالون مدام دى ديفان فرنسيًّا آخر لم تلبث أن صَبَتْ إليه كما صبا إليها ، وإذا حياتها تتغير تغيراً جوهريًّا . والغريب من أمر هذا الفرنسى أنه كان يشبهها من بعض الوجوه ، ولعل هـذا الشبه أن يكون له أثر فى هذا الود .

هذا الفرنسى هو دالمبير ، والقراء يعرفون من غير شك المركز الممتاز الذى كان دالمبير يشغله فى الحياة العقلية الفرنسية فى ذلك الوقت . فقد كان دالمبير فيلسوفاً وأديباً ورياضيًّا ، وكان متفوقاً فى هـذا كله تفوق النبوغ ، وكانت الأندية الباريسية تختصم فيما بينها أشد الاختصام : أيها يظفر به ويحظى بزيارته .

وكان دالمبير ، كما كانت فتاتنا ، قد ولد لأبوين نبيلين سنة ١٧١٧ ، ولـكنه ولد مولداً غير شرعى ، كما ولدت الفتاة مولداً غير شرعى . وقد حظيت الفتاة بعطف أمها ، فأما دالمبير فقد فَقَدَ هذا العطف فقـداً تامًّا . وجده رئيس من رؤساء الشرطة عند كنيسة من الـكنائس ، فالتقطه وعمّـده والتمس له المراضع خارج باريس .

فقدت الفتاة عطف أبيها ، وحظيت بعطف أمها ، وفقـد دالمبير عطف أمه مدام دى تنسين ، ولـكنه ظفر بعطف أبيه مسيو دى توش . فقد عاد هذا الرجل إلى باريس من بعض المهمات التى كان كُلِّـف القيام بها ، فعرف مولد الطفل واطراحه والتقاط الشرطة له ، وجـدَّ حتى اهتدى إليه والتمس له المراضع فى باريس نفسها ، ولم يستطع أن يستلحقه لأنه كان متزوجاً ، فقام على تربيته وأوصى له بما يكفل له حياة متواضعة .

وقد نشأ الصبى نشأة حسنة فى حجر مرضعته الفقيرة ، فدرس حتى تخرَّج فى الأدب والفلسفة والطب والرياضيات ، وبرع فى هذا كله حتى أصبح علماً من أعلام الثقافة الفرنسية بل طابعاً لهذه الثقافة فى القرن الثامن عشر .

وكان الود متصلا بينه وبين مدام دى ديفان ، حتى استـأثرت به استئثاراً ،

فلم يكن يختلف إلا إلى صالونها ؛ أو لم يكن يواظب إلا على صالونها . وكانت تؤثره أشد الإيثار وتختصه بمودتها وبرها . ولكنه لقى عندها هذه الفتاة ، فصبا إليها وصبت إليه ، واتصل بينهما ودٌّ لم تلبث صاحبة الدار أن ارتابت فيه ، ثم ضاقت به ، ثم لامت ، ثم عنفت فى اللوم ، فاضطر دالمبير إلى أن يسافر من باريس ويذهب إلى برلين ، مستجيباً لدعوة فردريك يلتمس فى هذا السفر إرضاء مدام دى ديفان ، وسلوًّا عن مدموازيل دى لسپيناس . على أنه عاد إلى باريس ، فإذا قلبه ما زال كما كان حين ارتحل عنها ، وإذا قلب الفتاة ما زال كما كان حين فارقها .

على أن دالمبير إن انفرد بحب الفتاة فهو لم ينفرد بإكبارها والكلف بحديثها ، وإنما شاركه فى ذلك جماعة من الذين كانوا يختلفون إلى الدار ، فجعلوا يقدمون موعد زيارتهم ويصعدون إلى حيث كانت الفتاة تقيم ، فيتحدثون إليها ويسمعون منها ، حتى إذا كان موعد الاستقبال عند مدام دى ديفان فى الساعة السادسة من المساء هبطوا إليها . وقد عرفت صاحبة الدار هذا الأمر ، فسخطت له أشد السخط ، ونفت عن دارها مدموازيل دى لسپيناس كما نفت عن دارها أثيرها دالمبير.

وأثيرت حرب شعواء بين السيدة والفتاة ، وانقسم الناس فى أمرهما انقساماً عظيما ، كانت له آثاره فى الأدب الفرنسى . والمهم هو أن أصدقاء الفتاة من الرجال والنساء منحوها كثيراً من العطف والود ، واتخذوا لها داراً غير بعيد من دار مدام دى ديفان ، فأقامت فيها وجعلت تستقبل أصدقاءها . وما هى إلا مدة قصيرة حتى أصبح صالونها ممتازاً فى باريس ينافس صالون مدام دى ديفان منافسة خطيرة حقًّا .

أقامت فى الدار وحدها أول الأمر ، ولكن الظروف كانت تريد أن تجمع بينها وبين دالمبير فى دار واحدة . وقد كان دالمبير يعيش عند مرضعه فى بيتها الحقير ، لم يخطر له أن يفارقها ، ولكنه مرض مرضاً شديداً فقامت على تمريضه مدموازيل دى لسپيناس ولم تفارقه حتى أتيح له الشفاء .

ثم مرضت مدموازيل دى لسپيناس نفسها ، أصابها الجدرى حتى عرّض حياتها للخطر ، وقام على تمريضها دالمبير حتى أتيح لها الشفاء .

وكذلك قضت الظروف أن يعيش الصديقان فى دار واحدة : تعيش الفتاة فى الطابق الأدنى ، ويعيش الرجل فى الطابق الأعلى ، وألف الناس منهما ذلك ، فلم

ينكروه ولم يضيقوا به. والواقع أن هـذا الأمر لم يكن فيه ما يدعو إلى ضيق أو إنكار؛ فقد تحابَّ الصديقان ولكن فى غير ريبة. ومع أن الألسنة لم تمتنع عن التعريض والتلميح فى أول الأمر، فقد تبين أن الحب بين الصديقين لم يتزل قط عن مكان الحب الأفلاطونى النقى البرىء.

ومنذ ذلك الوقت أصبحت مدموازيل دى لسپيناس علماً من أعلام الحياة العقلية الفرنسية، وأصبح صالونها مركزاً من مراكز الثقافة العليا فى الأدب والفلسفة والفن والسياسة والاجتماع. يختلف إليـه مرات فى كل أسبوع زعماء الحياة العقلية فى باريس، فيحاورون ويجادلون ويقررون أيضاً. ويختلف إليه فى الوقت نفسه أعلام الأجانب الذين يمرون بباريس أو يقيمون فيها إقامة متصلة.

من هؤلاء الأجانب أدباء وساسة وفلاسفة ممتازون، من الإنجليز والإيطاليين، والأسبانيين، والألمانيين أيضاً. ثم كانت مدموازيل دى لسپيناس وصديقها دالمبير يغشيان الصالونات المختلفة فى باريس عند مدام چوفران ومدام دى شوازل ومدام نيكر ومدام هلڤسيوس ومدام دى لكسمبورج، وعند طائفة أخرى من السيدات اللاتى كن يتخذن هذه الصالونات مراكز للحياة العقلية القوية الخصبة.

فى هذا الوقت لقيت مدموازيل دى لسپيناس فى أحد هذه الصالونات فتى أسبانيًّا ممتازاً امتيازاً أجمعت عليـه الصفوة البارسية كلها، وهو مسيو دى مورا. كان ضابطاً فى الجيش الأسبانى، وكان أبوه سفيراً فى باريس. لم تكد مدموازيل دى لسپيناس تلقى هذا الفتى حتى صَبَتْ إليه، ولم يكد هذا اللقاء يتكرر حتى وقع حبه فى قلبها كما وقع حبها فى قلبه. ولم يكن هذا الحب عابراً ولا سطحيًّا، وإنما كان من هذا الحب الذى لا يكاد يبلغ القلوب حتى يستقر فيها ويستأثر بها ويملك عليها كل شىء، ويصبح فتنة لا تجد النفوس عنه منصرفاً، ومحنة لا تجد القلوب إلى التخلص منه سبيلا. وقد كان هذا الحب محنة بأدق معانى هذه الكلمة، سَعِد به العاشقان سعادة تعجز النفوس عن احتمالها وتقصر الألسنة عن وصفها، وشقى به العاشقان شقاء كان سبيلهما إلى الموت.

كان حبًّا نقيًّا ممعناً فى النقاء، ولكنه على ذلك لم يكتف بنقائه الأفلاطونى وإنما حاول أن يسلك طريقه الشرعية إلى الرضا، فهمَّ العاشقان أن يقترنا، وقامت دون أمنيتهما هذه أهوال ثقال. أهوال مختلفة، بعضها جاء من اختلاف

الطبقة ، فقد كان الفتى من أرفع الأسر الأسبانية منزلة وأعلاها مكانة وأعرقها نسباً وأعظمها ثروة وأوسعها جاهاً ونفوذاً . وكانت مدموازيل دى لسپيناس كما علمت لا أسرة لها وليس لها نسب إلا هذا الذى يعتز به المتنبي فى كثير من شعره ، والذى لا يرجع إلى الأسرة وما يكون لها من مجد قديم ، وإنما يرجع إلى الشخص وما يستحدث لنفسه من المجد .

فليس غريباً أن تضيق الأسرة الأسبانية بفكرة الزواج هذه وتراها ضلالاً وانحرافا عن الجادَّة ، وتقيم فى سبيلها العقاب التى لا يمكن تذليلها .

وليس غريباً أن يصمم الفتى على بلوغ ما أراد ، وأن تثار حرب عنيفة منكرة خفية بينه وبين أبويه . ولو أتيحت الصحة للفتى وواتته الظروف لكان من الممكن أن ينتصر آخر الأمر ، فقد كان حازماً عازماً شديد المضاء ، ولكن الأيام والحوادث كانت اشد منه حزماً وعزما وأبعد منه مضاء . أغرت به الأسرة وأغرت به المرض أيضاً ؛ فقاوم الأسرة ما وسعته المقاومة وكاد ينتصر عليها ، وقاوم المرض ما وسعته المقاومة ، ولكن المرض انتصر عليه وهو فى طريقه إلى باريس عائداً إليها من وطنه ليتم ما صمم عليه من الزواج .

ولم تصل إلينا الرسائل التى تبادلها العاشقان ، وقد كانت كثيرة ما فى ذلك شك ، فقد كتب الفتى إلى صاحبته اثنتين وعشرين رسالة فى عشرة أيام ، ولم يكن بعيداً عنها ، وإنما كان قريباً منها فى ضاحية من ضواحى باريس . وإنما عرفنا أخبار هذا العشق وخطوبه من رسائل أخرى لمدموازيل دى لسپيناس ومن رسائل تبودلت بين دالمبير وأسرة الفتى فى مدريد .

على أن أمور مدموازيل دى لسپيناس تعقدت فجأة تعقداً غريباً هو الذى أظهر الأدب على شخصيتها هذه الفذة وأورثه فنها هذا الرفيع . كان عاشقها فى مدريد يقاوم أسرته ويقاوم علته ، ويتخذ من حبه القوى أداة ناجعة لهذه المقاومة . وكانت هى فى باريس تنتظر ، سعيدة بالانتظار شقية به أيضاً ، مشفقة أشد الإشفاق على حبيبها من هذه العلة المرهقة . ولكنها أجابت ذات يوم مع دالمبير إلى وليمة من الولائم فى ضاحية من ضواحى باريس ، فى قصر فخم تحيط به طبيعة رائعة قد نسقتها الحضارة والفن أحسن تنسيق ، فجمعت فيها بين ترف المدينة وسذاجة الريف . فى هذا القصر لقيت مدموازيل دى لسپيناس فتى فرنسيًّا نبيلا كان الناس قد أخذوا يكبرونه ويعظمون شأنه لأنه أظهر تفوقاً وامتيازاً .

كان ضابطاً فى الجيش ، وكان قد أصدر كتاباً فى فن الحرب اعجب به المختصون وفتن به المثقفون عامة ، وقيل إن بونابرت كان يصحب هذا الكتاب بعد ذلك فى جميع مواقعه الحربية الكبرى . وكان هذا الفتى حلو الحديث راجح العقل حسن المحضر لطيف المدخل ، قد جمع إلى براعته فى فنه العسكرى ظرفاً فاتناً وثقافة واسعة وأدباً رفيعاً ، حتى إن كثيراً من الأدباء والفلاسفة الفرنسيين كانوا ينوطون به آمالا عراضاً ، ويعتقدون أن مسيو دى جيبير سيكون البطل الذى ينقذ فرنسا فى يوم من الأيام .

لقيت مدموازيل دى لسپيناس هذا الفتى فى ذلك القصر ، فتحدثت إليه وسمعت منه . وأكبر الظن أنها سايرته غير متكلفة فى بعض هذه الحدائق الرائعة ، فوقع من نفسها وأعجبها حديثه وظرفه وثقافته . فلما عادت إلى باريس قرأت كتابه فازداد إعجابها به وإكبارها له ، ولم تملك نفسها فكتبت إليه تثنى على هذا الكتاب . وأقبل هو يزورها ليشكر لها هذا الثناء . ولم ينصرف من هذه الزيارة حتى ترك فى قلب مدموازيل دى لسپيناس جذوة لا سبيل إلى إطفائها . وأصحاب علم النفس والمتعمقون لدقائق الحب وما يثير فى القلوب من العواطف والأهواء يستطيعون أن يجيبوا على هذا السؤال : كيف اجتمع السيفان فى غمد ! وكيف ائتلف الحبان فى قلب ! وكيف قامت الجدوة القديمة التى أوقدها الفتى الأسبانى منذ سنين إلى جانب الجذوة الحديثة التى أوقدها الفتى الفرنسى منذ أيام ؟ وقد أجاب جوت على هذا السؤال حين قال فى بعض كتبه : « إن القلب الإنسانى كبير يسع كل شىء وضعيف يحطمه أيسر شىء ». وقد اختلف الكتاب اختلافاً شديداً جدًّا فى حل هذه المشكلة . وما يعنينى من اختلافهم شىء ، فأنا لا أكتب حديثاً فى الحب ، وإنما أقص قصة امرأة جمعت فى قلبها بين حبين .

فهى لم تسل عن فتاها الأسبانى ، وإنما ازدادت به تعلقاً وبحبه استمساكا . ومن الحق أنها دافعت الحب الجديد عن نفسها فلم تستطع ، ثم خادعت نفسها عن هذا الحب فصورته على أنه مودة فلم يغن الخداع عنها شيئاً ، ثم وقفت حائرة ممزقة بين هذين الحبين : نصف قلبها فى أسبانيا ، ونصف قلبها الآخر فى باريس . أستغفر الله ! بل غرّب نصف قلبها إلى أسبانيا وشرّق نصفه الآخر إلى ألمانيا ، فقد سافر الكونت دى جيبير إلى ألمانيا والنمسا وكاد يسافر إلى روسيا ، فتبعه قلب

مدموازيل دى لسپيناس أو قل نصف قلبها ، أو قل إن شئت إنها جعلت ترسل إليه قلبها أقساطا منجَّمة فى هذه الكتب التى كانت تكتبها اليه

وقد علمت مدموازيل دى لسپيناس أن قلب صاحبها الفرنسى لم يكن خالصاً وأنه كان يحب سيدة نبيلة أخرى ، وأنه لم يكن يبخل على نفسه باجتناء زهرات الحب واقتطاف ثمرته حين كان ذلك يتاح له بين حين وحين . علمت ذلك فذاقت مرارة الغيرة واصطلت بنارها المحرقة ، وعذّبت نفسها وعذبت صاحبها فى ذلك عذاباً شديداً ، واستيقنت منذ أحست هذه الغيرة أن قلبها لا ينعم بالمودة الهادئة وإنما يشقى بالحب العنيف .

وما زالت تعذِّب نفسها وتعذب الفتى حتى استخلصته أو ظنت انها استخلصته لنفسها من دون النساء . وقد عاد الفتى الفرنسى إلى باريس ، وأخّر المرض عودة الفتى الأسبانى إليها ، فكانت تلقى صاحبها الفرنسى فى كل يوم تقول له ويقول لها ، والأمر بينهما مستقيم لا يتجاوز النقاء الأفلاطونى البرئ . والناس يعلمون أنها تكبره وتؤثره بالود ، وأنه يكبرها ويؤثرها بالإجلال . والناس يعرفون ذلك ولا ينكرونه . حتى كان يوم من أيام فبراير سنة ١٧٧٢ ذهب الصديقان فيه إلى الملعب وسمعا فيه الموسيقى ، وكان للموسيقى فى نفسهما أثر أى أثر ، فلم يتفرقا حتى شربا من تلك الكأس التى لا يعرف الناس أتقدِّم لشاربها رحيقاً أم حريقاً ، كما يقول ابن الرومى ، أتقدِّم إليهم شرابا صفواً أم سمًّا زعافاً .

مهما يكن من شئ فقد كان قلب مدموازيل دى لسپيناس ينقسم نصفين : نصف لحب الفتى الأسبانى ونصف لحب الفتى الفرنسى . فقد أصبح منذ ذلك اليوم ينقسم أثلاثا ، ولا يخلص للحب وحده وإنما يقوم الندم فيه بين هذين الحبين مقاماً غريباً ، يشتد ويقسو حتى يخيل إليها أنها آثمة مجرمة قد خانت الرجل الذى تحبه وحده وتؤثره بحبها كله من دون الناس . ثم يضعف ويتضاءل حتى ينسيها نفسها وينسيها كل شئ ويقدمها ضحية متهالكة متضائلة إلى هذا الحب الآخر الجامح الذى لا يعرف قصداً ولا اعتدالا . وقد أرادت الحياة أن تمعن فى القسوة حتى تبلغ بها أقصى غاياتها ، وأن تجعل كل شئ من أمر هذه المرأة غريباً حقًّا .

ففى نفس اليوم الذى أثمت فيه اشتدت العلة على صاحبها الأسبانى حتى بلغت حد الأزمة المهلكة . وصلت إليها الأنباء بذلك بعد أيام ، فسجلته وسجلت معه ندماً ما أعرف أنه صور فى أدب من الآداب كما صور فى رسائل مدموازيل

دى لسپيناس . ثم جاءتها الأنباء بأن صاحبها الأسبانى قد مات فى طريقه إلى باريس ؛ فلم تشك فى أن خيانتها له قد قتلته وإن لم يعلم من أمر هذه الخيانة شيئاً وقد همّت ان تقتل نفسها ، ولكن صاحبها الفرنسى ردها عن الموت أو ردعها الموت . فعاشت بعد ذلك عيشة رائعة مروعة حقا : تحب كما لم يحب أحد قط ، وتندم كما لم يندم أحد قط ، وتصور ذلك فى رسائل لم يكتب أحد مثلها قط . بعض هذه الرسائل تكتب إلى عاشقها الحى ، وبعض هذه الرسائل تكتب إلى عاشقها الذى مات . وهى فى أثناء ذلك تعيش عيشتها المألوفة ، تستقبل الفلاسفة والأدباء والساسة وتزورهم ، وتغشى الصالونات وتختلف إلى ملاعب التمثيل والموسيقى ، وتسعى فى أن ينتخب فلان أو فلان عضواً فى المجمع اللغوى الفرنسى ، وتسعى فى أن يحقق هذا الوزير أو ذاك لهذا الصديق أو ذاك هذا الأمل أو ذاك ، وتشارك فى النقد الأدبى وفى النقد السياسى وفى كل ما يشارك فيه الأدباء والساسة والفلاسفة ، وتكتب إلى أخيها من أختها وأبيها ، وتعنى بأمره عند السلطان وتظهره مع امرأته على باريس .

وتكتب فى أثناء هذا كله إلى عاشقها الفرنسى ، أو قل ترسل إلى هذا العاشق قطعا من النار المدمرة التى لا تبقى ولا تذر ، وقطعا من النسيم الحلو الذى يملأ القلوب أمناً وسلاماً وغبطة وابتهاجاً . ترسل إليه هذا الكتاب القصير الذى أعجب به سانت بوف والذى لا تؤرخه بيوم كذا من شهر كذا من عام كذا ، وإنما تؤرخه بكل لحظة من لحظات حياتها : « أيها الصديق إنى آلم ، إنى أحبك ، إنى أنتظرك » .

وأغرب من هذا كله أن الناس لا يعلمون من أمر هذا الحب شيئاً ، وأن دالمبير الذى يعيش معها فى دار واحدة لا يعلم من أمر هذا الحب شيئاً ، وإنما يحس فتورها عنه ولا يجد لهذا الفتور تعليلا .

وقد قضت ظروف الحياة على الكونت دى جيبير أن يتزوج ، فتألمت مدموازيل دى لسپيناس وثارت وغضبت ، ثم أذعنت لأنها لم تكن تملك إلا الإذعان ، وقد عاهدت نفسها وعاهدت صاحبها على أن تحترم هذا الزواج وتحترم الفضيلة التى ينبغى أن تظله وتسيطر عليه . وقد وفت بالعهد واحتملت فى هذا الوفاء أهوال الأثقالا ، وهمّ صاحبها ذات ليلة أن يخرج عن هذا الوفاء النقى ، كان يقرأ معها بعض رسائلها إليه ، فصبا قلبه وثارت نفسه وجمحت عواطفه وطغت غرائزه ، ولكنها ردته ردّاً منكراً عنيفاً ، فعاد إلى داره متهالكا متخاذلا ، وكتب إليها من

ساعته معتذراً نادماً ، ووصل إليها كتابه فاذا هى غارقة فى دموعها لأنها كلفت نفسها من الجهد فوق ما تطيق . والفتى محب لزوجه ، مستبق صلته مع خليلته الأولى فى غير إثم كما يقال . ولكن مدموازيل دى لسپيناس تكتب إليه : « ضعنى حيث شئت من حبك القديم ومن حبك الجديد ؛ فلن اقول شيئاً ، ولكن اجتهد فى ألا تنزلنى منزلة مخزية فانى لا أستحق هذا الخزى » .

وقد أخذت العلة تسعى إلى مدموازيل دى لسپيناس، وأخذت هى تستبطئ الموت ، حتى إذا تقدمت العلة فغيرت من شكلها ومن جسمها أوت إلى غرفتها ثم إلى سريرها ، ثم أبت أن تلقى صاحبها لأنها لم ترد أن يراها وقد تغير شكلها على غير ما يهوى .

أبت أن تلقاه، ولكنها مضت فى الكتابة إليه إلى آخر لحظة . كان يعودها مرات فى كل يوم فتعلم بمكانه من دارها ، وتسعى الكتب بينها وبينه ،حتى كان آخر شئ كتبته وهى فى آخر لحظة من لحظات الدنيا وأول لحظة من لحظات الآخرة كتاب حمل إليه ، ولم يكد يبلغه حتى كانت مُحْتَضَرة تعالج سكرات الموت.

وقد ماتت مدموازيل دى لسپيناس ومضت على موتها أعوام واعوام ، ومات الكونت دى جيبير أيضاً ، ثم عرف الناس فى أول القرن الماضى وعرف من بقى من أصدقائها أمر ذلك الحب حين نشرت رسائلها إلى الكونت دى جيبير .

وكم كنت أحب أن أتحدث عن هذه الرسائل، ولكنى لم أكتب هذا الفصل إلا لأغرى القراء بقراءتها فى أصلها الفرنسى وبترجمتها إلى اللغة العربية . فما أعرف أن أدباً من الآداب الحية أو القديمة قد صوّر الحب والندم والألم والغيرة كما صورتها مدموازيل دى لسپيناس .

طه حسين